حول كتاب:

مستقبل الثقافة فى مصر

نظرة انتقادية عامة

للأستاذ أبى خلدون ساطع الحصرى بك

« مستقبل الثقافة فى مصر »

هذا العنوان الذى عنون به الأستاذ الدكتور طه حسين الكتاب الذى نشره قبل بضعة أشهر فى مجلدين ... ذكّرنى بعنوان « المطارحات » التى نشرها « المعهد الأممى للتعاون الفكرى » التابع لعصبة الأمم بعد الاجتماع الذى عقده فى مدريد سنة ١٩٣٣ : مستقبل الثقافة

وعند ما أسجل هذه المشابهة فى مستهل مقالى هذا ، أرى من الواجب علىّ أن أصرح — فى الوقت نفسه — بأن المشابهة بين الكتابين لا تتعدى حدود العنوان . فإذا كان من البديهى أن المؤلف الفاضل اقتبس عنوان كتابه من المطارحات المذكورة، فمن الواضح أيضاً أنه لم يستلهم شيئاً من موضوعاتها أو من مناحى التفكير المتجلية فيها ...

وأما كيفية تأليف الكتاب ، فالمؤلف يشرحها لنا بكل وضوح ، فى المقدمة القصيرة التى صدّره بها :

إن « فوز مصر بجزء عظيم من أملها فى تحقيق استقلالها الخارجى وسيادتها الداخلية » حمل « المفكرين المصريين » على أن يشعروا بأن « مصر تبدأ عهداً جديداً من حياتها » ... « إن كسبت فيه بعض الحقوق ، فإن عليها أن تنهض فيه بواجبات خطيرة وتبعات ثقال » . إن هذا الشعور شمل الشباب ، ودفع فريقاً منهم إلى « أن يسألوا المفكرين وقادة الرأى عما يرون فى واجب مصر بعد إمضاء المعاهدة مع الإنجليز ... » وهذا قد جعل كل واحد من المفكرين المسؤولين « يتحدث إليهم فى ذلك حديثاً سريعاً مرتجلاً ، بقدر ما كان يسمح له وقته وعمله وتفكيره السريع فى حياة سريعة » تمر بهم أو يمرون بها « مرّ البرق » .. فقد تحدث الدكتور طه حسين نفسه إلى هؤلاء الشبان فيمن تحدث ؛ غير أنه لم يقتنع بكفاية ما تحدث إليهم به ، ولم ير أنه « قد دلهم على ما كان يجب أن يدلهم عليه ، وهداهم إلى ما كان يجب أن يهديهم إليه » . واستقر فى نفسه أن واجب المصريين « فى ذات الثقافة والتعليم بعد الاستقلال أعظم خطراً وأشد تعقيداً » مما تحدث به إليهم « فى ساعة من ليل أو فى ساعة من نهار، أو فى قاعة من قاعات الجامعة الأميركية ... وأنه يحتاج إلى جهد أشق وتفكير أعمق وبحث أكثر تفصيلاً » ووعد نفسه بأن يبذل هذا الجهد، وأن يفرغ لهذا البحث ، وأن ينهض بهذا العبء ... ولكنه لم ينبئ هؤلاء الشباب بشىء مما قرره ، لأنه أشفق أن تحول ظروف الحياة بينه وبين إنجاز هذا الوعد . وليس أشق عليه من وعد يبذله للشباب ثم لا يستطيع له إنجازاً ...»

إن كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » كتب « لإنجاز ذلك الوعد الذى قدمه الأستاذ إلى الشباب الجامعيين ولم يظهرهم عليه ... »

إن هذه المقدمة تدل دلالة واضحة على أن الدكتور طه حسين قد شعر بخطورة هذه المباحث حق الشعور، وقدّر عواقب التسرع والارتجال فيها حق التقدير . . . كما تعلن إعلاناً صريحاً أنه لم يكتب الكتاب إلا بعد أن بذل « الجهد الأشق » الذى قال بضرورته ، وقام « بالتفكير الأعمق » الذى نوه به ، و « فرغ للبحث لينهض بالعبء » الذى أشار إليه ...

غير أن من ينعم النظر فى الكتاب — بعد مطالعة هذه المقدمة — يشعر بشىء كثير من خيبة الأمل ؛ لأنه لا يجد فيه من الآراء والملاحظات ما يتناسب مع وعود العنوان وتصريحات المقدمة . فالكتاب يتألف فى حقيقة الأمر من مجموعة أحاديث ومقالات قليلة التناسق كثيرة التداخل ، يبدو على جميع أقسامها آثار الارتجال والاستعجال ، ويتخلل معظم أقسامها أنواع شتى من الاستطرادات والاستدراكات ...

فكثيراً ما يقع النظر فى صفحات الكتاب على فكرة صائبة — معروضة بأسلوب جذاب — غير أنه يلاحظ فى الوقت نفسه كثيراً من المآخذ فى المقدمات التى سبقت تلك الفكرة والملاحظات التى تلتها فيبقى حائراً متردداً بين مواقف الاستساغة والاستنكار

إن نظرة إجمالية إلى أولى المسائل المشروحة فى الكتاب تكفى للبرهنة على كل ذلك فى وضوح وجلاء

— ١ —

إن المسألة التي يفتتح بها الدكتور طه حسين أبحاث كتابه تتلخص في السؤال التالي :

هل يوجد فرق جوهري بين العقل المصري والعقل الأوربي ؟

والمؤلف يناقش هذه المسألة في أكثر من ثلاثين صفحة من الكتاب مناقشة مباشرة ثم يعود إليها عدة مرات — بوسائل شتى — في نحو ثلاثين صفحة أخرى .. وأما الحكم الذي يصل إليه من أبحاثه ومناقشاته هذه فيتلخص في العبارات التالية :

« فكل شيء يدل على أنه ليس هناك عقل أوربي يمتاز من هذا العقل الشرقي الذي يعيش في مصر وما جاورها من بلاد الشرق القريب » (الصفحة : ٢٨)

فمهما نبحث ومهما نستقص فلن نجد ما يحملنا على أن نقبل أن بين العقل المصري والعقل الأوربي فرقاً جوهرياً » (الصفحة : ٢٩)

إنني أشارك الدكتور طه حسين في هذا الحكم الصريح مشاركة تامة . . . فلقد درست وناقشت هذه المسألة فيما مضى مراراً بوسائل مختلفة ؛ وانتهيت في جميع تلك الدراسات والمناقشات إلى نتيجة مماثلة لهذه النتيجة ، لا بالنسبة إلى المصريين فحسب ، بل بالنسبة إلى أمم الشرق الأدنى بوجه عام ، والأمة العربية بوجه خاص ...

ولهذا السبب ، يسرني كل السرور أن أتفق مع المؤلف في هذا الحكم اتفاقاً تاماً « ومع هذا يؤلمني جداً » ألا أستطيع موافقة على سلسلة الآراء والأحكام التي سردها حول هذه المسألة وأن أراني مضطراً إلى مخالفته في معظم المقدمات التي بنى عليها حكمه هذا ، وفي بعض النتائج التي استخرجها منه ...

أولاً ، يكرر الدكتور طه حسين الحكم الذي ذكرناه آنفاً عدة مرات — جرياً على عادته العامة — ويعبر عنه في كل مرة بشكل جديد ، وكلمات جديدة — حسب أسلوبه الخاص — ؛ غير أنه لا يتقيد — خلال هذا التكرار — بمعاني الكلمات ، وحدودها « التقيد العلمي » الذي يتطلبه مثل هذه الأبحاث ... فينزلق إلى مهاوي الغلو والمبالغة انزلاقاً غريباً ، فيبتعد عن « الحقيقة » التي كان توصل إليها ابتعاداً كبيراً ...

مثلاً ، يسترسل مرة في الحديث حتى يضيف كلمة الثقافة إلى كلمة العقل ، فيقول :

« كلا ، ليس بين الشعوب التي نشأت حول بحر الروم وتأثرت به ، فرق عقلي أو ثقافي ما ... » (الصفحة : ٢٥) .

أفلا يحق لي أن أسأل الأستاذ في هذا المقام : هل يدعي — عن جد — أنه لا يوجد « فرق ثقافي ما » بين المصري ، والفرنسي ، والسوري ، والإيطالي ؟ إن القول بعدم وجود « فرق جوهري » بين « العقل المصري ، والعقل الأوربي » شيء ، والقول بأنه لا يوجد بين المصري والأوربي « فرق ثقافي ما » شيء آخر ... فمهما آمنت بالقضية الأولى إيماناً عميقاً ، لا يمكنني أن أسلم بالقضية الثانية أبداً ... وأعتقد اعتقاداً جازماً أن إنكار وجود « الفرق الثقافي » بين الشعوب التي نشأت حول بحر الروم ، لا يختلف عن إنكار وجود الشمس في رابعة النهار ...

كما أرجح أن المؤلف نفسه لم يكتب ذلك عن « تأمل واعتقاد » ، بل كتب ما كتبه في هذا المضمار مدفوعاً بدوافع الاستعجال والارتجال — بالرغم من تصريحات المقدمة — ومجروفاً بتيار الألفاظ والكلمات . وربما كان من أبرز الأدلة على ذلك ما قاله في أواخر الكتاب حيث يختم أبحاث الكتاب بسؤال عام : « أتوجد ثقافة مصرية ؟ » ويجيب على هذا السؤال بالعبارة التالية :

« هي موجودة ، متميزة بخصالها وأوصافها التي تنفرد بها من غيرها من الثقافات ... » (الصفحة — ٥٢٥)

ولا أراني في حاجة إلى البرهنة على أن مضمون هذه العبارة ، يناقض القول الذي أشرنا إليه آنفاً ، مناقضة صريحة ...

ومما يجدر بالملاحظة أن مغالاة المؤلف في تشبيه المصريين بالأوربيين — وإنكار وجود الفروق بينهما — لا تنحصر في هذه القضية وحدها ، بل تتعداها إلى أمور أغرب منها : إذ أننا نراه يدعي — في محل آخر من الكتاب — عدم وجود فرق بينهما من حيث الطبع والمزاج أيضاً . فهو عند ما يصرح بأنه « لا يخاف على المصريين أن يفنوا في الأوربيين » يبرهن على ذلك بقوله :

« ... ليس بيننا وبين الأوربيين فرق فى الجوهر ولا فى الطبع ولا فى المزاج ... » (الصفحة ٦٣)

ليس بين المصريين والأوربيين فرق لا فى الطبع ولا فى المزاج! لا أدرى كيف يستطيع أحد أن يدعى ذلك بصورة جدية ؟ فإن الفروق فى الطبع والمزاج من الأمور التى تشاهد على الدوام بين الأمم الأوربية نفسها ، وهى تبدو للعيان بين الانكليزى والفرنسى والألمانى والإيطالى ... حتى بين الشمالى والجنوبى من الفرنسيين ، والشرقى والغربى من الألمان ، والسهلى والجبلى من الطليان . وبين الريفى والمدنى والصانع والتاجر ، والمثقف والعامى من جميع هؤلاء ... فكيف يعقل مع هذا ألا يختلف طبع المصريين ومزاجهم عن طبع الأوربيين ومزاجهم بوجه من الوجوه؟

إننى أميل إلى الحكم بأن الدكتور طه حسين لم يكتب هذه العبارة أيضاً عن تأمل واقتناع . بل كتبها بدافع الاستعجال وتحت تأثير توارد الكلمات

إنى لا أكون من المغالين إذا قلت : إن « نزعة التسرع فى الحكم والإسراف فى الكلام » من النزعات المستولية على معظم مباحث كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » ، وهذه النزعة هى التى ورّطت المؤلف فى مآزق غريبة ، وأوقفته مواقف لا تخلو من التناقض فى بعض الأحيان

وللبرهنة على ذلك أود أن أستعرض — علاوة على ما ذكرته آنفاً — ما جاء عن الأزهر فى الأقسام المختلفة من الكتاب

يذكر الأستاذ الدكتور طه حسين الأزهر — فى كتابه هذا — أولاً عند ما يبحث عن اتصال مصر بالحضارة الأوربية فيتوسع كثيراً فى وصف هذا الاتصال ، لأنه يعتبره دليلاً على عدم وجود فرق جوهرى بين العقلية المصرية والعقلية الأوربية إذ يقول : « إننا لا نجد فى هذا الاتصال من المشقة والجهد ما كنا نجده لو أن العقل المصرى مخالف فى جوهره وطبيعته للعقل الأوربى » (الصفحة ٣٥)

وعند ما يتطرق المؤلف إلى حالة الأزهر — خلال هذا البحث — يعرضه لنا كمعهد مسرف فى التجديد إذ يقول حرفيا ما يلى :

« كل شىء يدل ، بل كل شىء يصيح بأن الأزهر مسرف فى الإسراع نحو الحديث ، يريد أن يتخفف من القديم ما وجد إلى ذلك سبيلاً ... » (الصفحة ٣٤)

غير أننا نراه فى محل آخر من الكتاب ، يتراجع قليلاً عن تعبير « الإسراف » الذى استعمله فى هذا المقام ؛ لأنه يقول :

« أصبح الأزهر مسرعاً إلى هذه الحضارة ، يدفعه إسراعه إلى شىء يشبه الإسراف إن لم يكن هو الإسراف » (الصفحة٦١)

كما أننا نراه فى محل آخر يتنامى كل ذلك فيقول :

« إن الأزهر بحكم تاريخه وتقاليده وواجباته الدينية بيئة محافظة تمثل العهد القديم والتفكير القديم أكثر مما تمثل العهد الحديث والتفكير الحديث ... » (الصفحة ٩١)

ثم نراه يضيف إلى ذلك ما يلى :

« شىء آخر لا بد من التفكير فيه والطلب له ؛ وهو أن هذا التفكير الأزهرى القديم قد يجعل من العسير على الجيل الأزهرى الحاضر إساغة الوطنية والقومية بمعناها الأوربى الحديث ... » (الصفحة ٩٢)

وفى الأخير عند ما ينتقل إلى بحث المنافسة القائمة بين الأزهر وبين الجامعة لا يتحرج المؤلف من إبداء رأى يناقض رأيه الأول مناقضة صريحة إذ يقول :

« يقتضى أن يعدل الأزهر عدولاً تاماً عما دأب عليه من الانحياز إلى نفسه والعكوف عليها والانقطاع عن الحياة العامة . وقد يقال : إن الأزهر قد أخذ يترك هذه السيرة ويتصل بالحياة العامة ويأخذ بحظوظ حسنة من الثقافات الحديثة على اختلافها . وهذا صحيح فى ظاهره ، لكنه فى حقيقة الأمر غير صحيح . فالأزهر ما زال منحازاً إلى نفسه مستمسكاً بهذا الانحياز حريصاً عليه ... » (الصفحة ٤٧٥)

أنا لا أود أن أبدى رأياً فى الأزهر فى هذا المقام ؛ غير أنى أريد أن ألفت الأنظار إلى الاختلافات الموجودة بين هذه الآراء التى صدرت من قلم واحد فى موضوع واحد فى كتاب واحد !

غير أن هناك شيئاً أغرب من كل ذلك أيضاً : فإن المؤلف لا يكتفى بالبرهنة على عدم وجود فرق جوهرى بين العقل المصرى والعقل الأوربى ، بل يحاول أن يبرهن على أن مصر ليست جزءاً من الشرق ، ويسير بين سلسلة آراء وملاحظات — يكتنفها الغموض والتضارب من كل الجهات — ويلوم الأوربيين الذين